

شريعة الإسلام

صالحة لكل زمان ومكان

الشيخ/مصطفى البصراي



مصالح العباد في المعاش والمعاد، كما دل على ذلك استقراء نصوص الأحكام وتعليقاتها في الكتاب والسنة. وأنه سبحانه خص هذه الشريعة بالعموم والاستمرار دون الشرائع السماوية السابقة. فقد اقتضت حكمته تعالى أن تكون شرائع الرسل الذين سبقوا نبينا محمداً -صلى الله عليهم جميعاً وسلم- في الزمن، شرائع محدودة موقوتة، فهي لأقوام معينين، في مرحلة زمنية خاصة، وكان هذا هو الموافق للحكمة والمصلحة، فلم تكن البشرية في طور يسمح لها بتقبل شريعة عامة خالدة.

ولهذا لم يتكفل الله تعالى بحفظ مصادرها المقدسة من الضياع والتحريف، ولم يضمن لها أن يبعث في كل جيل من يحفظ كتابها، ويصون ميراث نبينا، ويجدد لها أمر دينها. ومن هنا حُرِّفَت الكتب السماوية المنزلة قبل القرآن، تحريفاً لفظياً ومعنوياً، ونسي أهلها حظاً مما ذكروا به، وهذا أمر أثبتته القرآن الكريم، ودل عليه الاستقراء بيقين، واختلطت كلمات الله بكلمات البشر.

فلما بلغت البشرية طورها الأخير، وعلم الله جل شأنه أنها أصبحت صالحة لأن تنزل عليها الرسالة العامة الأخيرة، بعث نبينا محمداً -صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ورسوله إلى الناس جميعاً، كما قال تعالى يخاطبه: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء: ١٠٧)، وقال تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَوْمُنَ بِاللَّهِ

الحمد لله رب العالمين، الذي هدانا لهذا صراطه المستقيم، فهدانا إلى الإسلام فأكمله -سبحانه- لنا وأتمه، وأتم به علينا النعمة، ورضيه لنا ديناً. وجعلنا من أهله وجعله خاتماً لكل دين وشرعة، ناسخاً لجميع الشرائع قبله، وبعث به خاتم أنبيائه ورسله محمداً -صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (الأنعام: ١٥٣). وجعل نهايته: رضوان الله والجنة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (المائدة: ١٥-١٦)، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (آل عمران: ٨٣).

الشريعة الإسلامية صالحة في كل زمان ومكان:

لقد ظهر في زماننا من يطعنون في الشريعة الإسلامية ويزعمون أنها لا تناسب هذا الزمان ولا يصلح تطبيقها في هذه الأيام، وكذبوا-فهذه قضية خبرية، شهد بصدقها الوحي الإلهي وشهد بصدقها التاريخ، وشهد بصدقها الواقع، وشهد بصدقها كل من اطلع على كنوزها من علماء القانون من المسلمين ومن المنصفين من غير المسلمين.

شريعة عامة خالدة:

فأما شهادة الوحي، فنحن نعلم أن الله تعالى أنزل هذه الشريعة بعلمه على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم ليقيم بها عدله في الأرض، ويحقق بها



حفظ القرآن يتضمن حفظ السنة:

وحفظ القرآن يتضمن حفظ السنة في الجملة. كما وضع ذلك الإمام الشاطبي في «الموافقات» فالسنة بيان للقرآن، كما قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل: ٤٤).

وحفظ المبين يقتضي حفظ البيان، لأنه لازم له، ولهذا هيأ الله تعالى للسنة من يزود عنها، ويرد الأباطيل عن حماها، قيل لعبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟ فقال: نُعَيِّن لها الجهابذة.

هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة:

ثانياً: ألا تجتمع هذه الأمة على ضلالة:

«فلا تزال طائفة منها قائمة على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، كما اقتضت حكمته تعالى أن يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وأن يقوم في كل عصر من يحمل علم الشريعة: ينفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

روى أبو مالك الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أجاركم من ثلاث خلال: ألا يدعوا عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً، وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق (أي: بصفة عامة ودائمة)، وألا تجتمعوا على ضلالة» (رواه أبو داود في كتاب الفتن، رقم (٤٢٥٣)). هذا من جهة ما قدره الله لبقاء هذه الشريعة وخلودها.

خصائص الشريعة واستحقاقها الخلود:

أما من جهة ما شرعه الله لذلك، فقد ضمنها من الخصائص والمزايا ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، ولا يستطيع المؤمن بكمال علم الله تعالى وحكمته ورحمته وبزهر خلقه أن يتصور أنه تعالى يغلق باب النبوة دونهم، ويقطع وحيه عنهم، ثم يتعبد لهم بشريعة قاصرة تصلح لقوم ولا تصلح لغيرهم، وتصلح لزمان ولا تصلح لآخر، وتصلح للبلد ولا تصلح لغيره، مع أنهم جميعاً مكلفون بأحكامها ملزمون بأن يحلوا حلالها، ويحرموا حرامها، ويأثموا بأوامرها وينتهوا عن نواهيها. إن من خطر له ذلك، فقد جهل مقام ربه، وظن به ظن السوء، وما قدر الله تعالى حق قدره. والحمد لله رب العالمين.

وكلماته وأتبعوه لعلكم تهتدون» (الأعراف: ١٥٨)، وقال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (الفرقان: ١).

وقال صلى الله عليه وسلم مُعَدِّدًا خِصَائِصَ رِسَالَتِهِ، وَمَا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ فَضْلٍ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي...» وفيه: «وكان النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَبَثُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً» (متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله).

ومقتضى هذا العموم: أن تكون هذه الرسالة أو هذه الشريعة صالحة لكل قوم، وكل بيئة، وكل مكان كما اقتضت حكمته تعالى أن تكون هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع، فهي ناسخة لما قبلها، ولا تنسخ بشريعة بعدها؛ إذ ليس بعد كتابها كتاب، ولا بعد نبيها نبي؛ فقد كمل الدين بالإسلام، وتم البناء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق الله العظيم إذ يقول: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (المائدة: ٣)، وقال تعالى: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» (الأحزاب: ٤٠).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأكملاه إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فصار الناس يطوفون به ويتعجبون من حسنه ويقولون لولا هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين» (متفق عليه من حديث جابر وأبي هريرة).

وعد الله تعالى بحفظ القرآن مصدر الشريعة الأول:

وحيث أراد الله لهذه الشريعة الخلود، فقد جرى قدر الله ومشيتته بضمان أمرين يكفلان لهذه الشريعة دوامها إلى قيام الساعة: أولاً: تكفل الله عز وجل بنفسه، بحفظ دستورها ومصدرها الأول، وهو القرآن الكريم، فقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحجر: ٩)، فهذا وعد إلهي-مؤكد بأكثر من صيغة-

يحفظ الذكر أي القرآن، ووعد الله لا يخلف. في حين لم يتكفل بحفظ الكتب السماوية السابقة، وإنما استحفظ عليها أهلها فقط، نظراً لأنها كانت أساساً لشرائع مرحلية مؤقتة، ستنسخها شرائع أخرى آخرها الشريعة المحمدية.

